المحاضرة الثّانية: مبادئ الحداثة.

يقول عبد الله العروي: **تنطلق الحداثة من الطّبيعة، معتمدة على العقل، لصالح الفرد، لتصل إلى السّعادة، عن طريق الحرية"**[1]، ومنه تتحدّد معظم سمات الحداثة التي نجملها فيما يلي:

1-حركة الزّمن (الحداثة سيرورة):

يتمركز الزّمن في الفكر الحداثي حول الحاضر ويتّجه نحو المستقبل، وهي نظرة تختلف عن الرؤيا "البدائية" التي تعتبر أنّ الزمن آت من الماضي (الذّهبي/ العصر النّقي الكامل): "**إنّه حركة إلى الأمام، مقابل مفهوم الفكر اللاحديث، الذي يرى أنّ الزّمن يتحرّك حركة هابطة، أي أنّ ثمّة بداية وجوهرا، ينبوعا، وعصرا ذهبيا، ...ثم يبدأ الزّمن بالانحدارلنصل إلى ما أسماه العرب قديما: فساد الزمان..."**[2]

2-القطيعة مع التراث، الماضي (الحداثة صيرورة):

وتتمثل الحداثة في نسق من الانقطاعات التاريخية عن المراحل السابقة حيث تهيمن التقاليد والعقائد ذات الطابع الشمولي. فالحداثة تتميز بأنماط وجود وحياة وعقائد مختلفة كليا عن هذه التي كانت سائدة في المراحل التقليدية. يقول عبد الله العروي: "**...لنودّع المطلقات جميعا، ولنكفّ عن الاعتقاد أنّ النّموذج الإنساني وراءنا لا أمامنا، وأنّ التّقدّم هو في جوهره تجسيدٌ لأشباح الماضي، وأنّ العلم تأويلٌ لأقوال العارفين، وأنّ العمل الإنساني يعيد ما كان، ولا يبدع ما لم يكن**"

وهو ما يعني أنّ الحداثة تجاوز مستمر، وثورة لا تهدأ على كل ما هو قديم، لذلك لا يفتأ الحداثيون إعلان تمرّدهم على الأسس التّقليدية السّائدة على مختلف المستويات: (الأخلاق، الاجتماع، الاقتصاد، الدين...الخ)، فليس "**...التّراث شيئا جامدا، ولا مقدّسا، ولا مطلقا خارج الزّمان والمكان، وإنّما هو إحدى ثمرات فكر الإنسان**".[3]

وبدلا من التقوقع على الذّات يدعو الحداثيون إلى الانفتاح على الآخر، والاستفادة منه؛ لأنّ "**...ما أنتجه أسلافنا في مختلف الميادين ليس كلّه قادرا على الإجابة عن مشكلاتنا الرّاهنة، أو على إفادتنا في تحقيق كشوف معرفية جديدة...**"[4]

3-العقلانية rationalité.

بهذا المبدأ عرفت الحداثة عموما واليه نسبت، وما ازل الاعتقاد بهذا التناسب والترابط راسخا حتى سوي بينهما، حتى أصبح البحث في الحداثة يستوجب الخوض في العقلانية، وكل بحث في العقلانية يقرن

بصورة واضحة ومباشرة بالحداثة، حتى قيل الحداثة العقلانية أو عقلانية الحداثة، فتبعا للعلاقة الوطيدة بينهما كما يرى هابرماس أن حضور الواحدة يستدعي الأخرى والعكس صحيح.

ومادام أن العقل هو المجال الذي يتحرك فيه الخطاب الحداثي بكل مستتبعاته، وهذا أمر لا يمكن الشك فيه، فالعقلانية هي مفتاح الحداثة وروح الإنسان الحديث بعد سيادة العبث والفوضى، وترك العالم عرضة للصدفة والهوى و الخرافة، كما كان الحال عليه في العصور الوسطى، فها هو الإنسان الحديث ينظر، يتأمل، ينفذ، ويبسط سلطته ويستبد، ويحدد لكونه ذاتا عاقلة، فهو الوحيد الذي يبرز وجود الأشياء ويعللها، وعلى هذا الأساس تعتبر الرابطة الحميمة بين الحداثة والعقلانية أمرا بديهيا، وينتج عن ذلك نزع الطابع السحري والوهمي عن العالم، و إزالة التصورات العتيقة، وتعويضها بثقافة علمية عاقلة"

وعلى هذا فالفكر الفلسفي في المناخ الكلاسيكي الغربي قد أسس حداثته بمحاولة إعادة الاعتبار إلى العقل واثباته من ناحية، وباستبعاد اللا عقل بجميع مظاهره من جهة أخرى، باعتباره منبع الفساد والتشويش والخراب (...) وعلى هذا فالعقل مفتاح الحقيقة والأسطورة مخبؤها، وبالعقل يستطيع المرء أن يسيطر على ما تخفيه الأسطورة، وأن يكشف وظائفها لفهم مقاصدها.

فالحداثة بهذا تأسست على إعطاء أهمية خاصة للعقل، إذ أصبح مبدأ لكل نشاط علمي ومرجعا لكل معرفة، ومن شأنه أن يحدد علاقته الشائكة بذاته؛ أو ما يعرف بالوجود الداخلي، أو ما يحيط به، أو ما يعرف بالوجود الخارجي، فهيغل رأى أن من شأن إعمال الإنسان الحديث لأول مرة في تاريخ البشرية، النظر في الآفاق وفي نفسه، إن عمل هو على (إزالة غربة الذات في الطبيعة وغربة الطبيعة في الذات).

وكما يتصور ماكس فيبر، فإن الحداثة ترتبط بالعقلانية في صورة تلازم واضح ودائم كرسه الفكر الغربي إلى الحد الذي يجعله ارتباطا داخليا بديهيا؛ بالنظر إلى تاريخ أوربا الحديث الذي استقلت فيه الفنون والمنظومة الأخلاقية والقانونية، مناهج العلم ونظرياته من قيود الدين وسيطرته، والتي مثلت في نظر المثقفين الغربيين عائقا حال دون التقدم المرجو، وهو ما أدى إلى ثقافة دنيوية، فالمعقولية هي قبل كل شيء، حقل فيه تنتظم معارفنا وتتحد تدخلات الإنسان لفهم الطبيعة والحياة فهما يقترب من حقيقة واقعها.

وترتب عن القول بالعقلانية كأساس للحداثة الغربية عقلنة جميع مناحي الحياة، سواء باستيعاب معطيات الماضي وتجاوزها، أو التأقلم مع معطيات الحاضر، والتهيؤ لاستقبال التطورات الجديدة.

4-الذاتية: La Subjectivité.

وتعني إعطاء الفرد قيمة مركزية تسمح له بممارسة كل حقوقه.

إن القول بالأساس الذاتي للحداثة لا يقل وزنا عن القول بأساسها العقلي، والحق أن الحداثة في معناها القريب والمباشر هي إيلاء الأولوية للذات، كونها استعادت ثقة الإنسان في فكره وحقه وملكه

ومسؤوليته، إذ وجد الإنسان المتعة لا فيما قرره التقليد أو أفتى به القس، أو أمر به القوم، وانما هي أعماله بما هو فرد ذو طبيعة حرة وعاقلة.

فمنذ عهد الحداثة صار بمقدور المفكر أن يفكر بدء من ضمير المتكلم "أنا" ، وهذه "الأنا" كانت مغيبة في العهد القديم و منغمرة في " النحن" وذائبة فيه. فالفكر الحداثي أعاد تشكيل نظرة الإنسان إلى ذاته كذات مستقلة " هي مقر ومرجع الحقيقة واليقين، وهي المركز والمرجع الذي تنسب إليه الحقيقة لكل شيء (...)، أي تنصيب الإنسان ككائن مستقل وواع وفاعل ومالك للحقيقة.) "

ولعل أبرز ملمح تجلى فيه قيام الحداثة على الذاتية كان في أعمال ديكارت الذي، وجه الفلسفة الحديثة نحو الذات، ذلك أنه تصور الإنسان بما هو "أنا" وأناط بهذه الأنا "الفكر"، فصار الإنسان جوهرا صفته الفكر، فمع الكوجيتو الديكارتي أصبحت فيه الذات المفكرة مركزا ومرجعا لكل حقيقة، وتبلورت ثقافة عقلانية لتشكل الأرضية والإيديولوجية المؤسسة لفكر الحداثة " فالفلسفة ابتداء من ديكارت أصبحت تحليلا للوعي و لملكاته وقواه، فوعي الإنسان لذاته أساس كل فكر لدى الإنسان، وانطلاقا من الوعي وحده يستطيع المرء أن يقوم بوصف لظاهرات العالم، وانطلاقا من الوعي وحده نستطيع أن نحدد ما يجب أن نعتبره موجودا حقا، عندئذ تتطابق الحقيقة مع التمثلات اليقينية، ويومئذ نجد "الأنا" التي تشكل تمثلاتها وقد أصبحت مناط كل ما هو موجود .

ومن خلال ذلك تشكل المفهوم الفلسفي للإنسان كذات في الفكر الغربي الحديث بكل ما فيه من نزعات لا عقلية ومن هوى، وبكل ما تسعى إليه من نفع واستحواذ، إذ أصبح العقل مجبرا على الانحياز إلى الذات ليستمد منها اليقين، وفي الوقت نفسه تطلب منه ليمنحها التبرير الذي يحتاج إليه لعقلنة أفعالها وأعمالها ومختلف ممارساتها التي تقوم بها باسم العقل افتراء عليه، وليرفع عنها بذلك كل قيد من دين أو أخلاق. وبذلك وقع للفلسفة تغيير عميق الأثر، تم بموجبه توجيه الفكر الغربي " وجهة جديدة نحو تحقيق غايات ذاتية أنانية، كان الفكر الفلسفي الغربي الحديث يصبوا للتخلص من استبداد الكنيسة، وسيطرة الباباوات وطغيانهم باسم الدين، فاختلط بذلك العقل واللاعقل، سواء أكان ذلك على المستوى النظري المحض، أم كان ذلك على المستوى العلمي التطبيقي، ليمتد هذا الخلط بعد ذلك إلى الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع دون حدود تحده أو قيود تقيده .

و بما أن الذاتية هي الأساس الفلسفي للحداثة، حيث أصبح الإنسان بمقتضاها مقياسا لكل شيء، فإنه يمكن القول بأنه أعيد اكتشاف بروتاغوراس (411-410ق م) في المصدر اليوناني لتأكيد هذه النزعة الإنسانية النسبية، لتؤدي بذلك هذه النزعة إلى انحياز العقل إلى الذات. فالذاتية بهذا تصبح ملازمة للإرادة والرغبة في المعرفة، الشيء الذي يعني اقتحام كل الميادين دون تردد، وكل تمظهرات الحياة وتعابيرها لمعرفتها عن حقيقتها، وقد ترتب عن الإيمان بمبدأ الذاتية كوجه آخر للحداثة-بعد العقلانية-أن أصبح الوجود قابلا

للمعرفة، من أبسط الظواهر إلى أعقدها، وأعلن الإنسان بموجب هذه المعرفة سيادته تقديرا لا توصيفا، " فثمرة انتصار الحداثة هي تحرير الروح واستقلالية الذات البشرية، وتقابل الإنسان مع نفسه كذات واعية، سيدة، مريدة وفعالة.

لذا فمنذ نهاية القرن الثامن عشر لم يهتم خطاب الحداثة في الغرب إلا بموضوع واحد رغم تعدد التسميات؛ وهو الإنسان وفاعليته.

5-الحرية (la liberté).

إن القول بالحرية كأساس للحداثة لا يقل قيمة عن القول بأساسي العقلانية والذاتية، إذ يمكن القول بأن الحداثة هي الحرية، فكما نظرت الحداثة إلى العالم نظرة ملؤها العقل واعتبار الذات، فقد عمدت كذلك إلى جعل الإرادة البشرية أساس بناء المجتمع والدولة الحديثة، فالحرية في الفكر الحداثي هي جوهر الكائن البشري، وغاية وجوده، وهي شرط لتحقيق الكمال والخلق الذاتي، والأكثر من ذلك هي الشرط الضروري للحصول على مشروعية الفعل الأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي...الخ.

وأول من حقق مبدأ الحرية فلاسفة الحداثة وروادها، ابتداء بديكارت حينما ربط كنه الفكر بالإرادة، وأوسطه تحقق مع ليبنتز، الذي عمم مبدأ الإرادة هذه، وجعل من كل كائن مريد، ومنتهاه مع كانط الذي جعل من الإنسان الكائن الحر بامتياز، وجعل من الحرية مقدرة الإنسان على التشريع لنفسه، وذلك من دون سند خارجي أو عون موضوعي، هذه الأفكار وغيرها كانت بمثابة البذور الأولى لنشأة المشروع الحداثي الغربي، والذي كانت الحرية صلبه ونواته، ونشأ بذلك المجتمع الحديث، الذي هو مجتمع الطبقات المفتوحة لا الطوائف المغلقة.

فحداثة الحرية هي التي تقوم على الاعتراف بالآخر كإرادة حرة لها حق الاختلاف والتواصل، وبالتعبير السياسي والاجتماعي الحرية هي بمثابة الفضاء الذي يتحقق في إطاره التفاهم والاعتبار المتبادل، فتعزز الثقة بين الحاكم والمحكوم، وتزول أسباب الظلم والعبودية، ومنه استثمار الكل مقدرات الخلق والإبداع والتطور. فالحرية بهذا هي ركن أساسي في النظرة الجديدة للتحديث.

والحرية ليست مسألة نظرية تثار في الأذهان من أجل البحث فيها فلسفيا بأبعاد ميتافيزيقية ، كما كان سائدا في عصور ما قبل الحداثة ، بل الحرية مسألة عملية تطبيقية تتجسد في مختلف مفاصل المجتمع ، الذي ابتغى من الحداثة سبيلا لحياته " فالوعي بالحرية لا يجري في عالم الفكر المجرد ، بل في مؤسسات وتنظيمات ترافق الثقافة المظهرة لفكرة الحرية وتتفاعل معها ، وهكذا تتألف حضارة الحرية من ثقافة الحرية ، ومن مؤسسات الحرية ، وتتطور على الدوام من جيل إلى جيل ، لا بتأثير التفاعل بين نشاط الثقافة وايقاع المؤسسات فقط، بل بتأثير التحولات داخل الثقافة ، وداخل المؤسسات أيضا.

وأبرز مظهر تجلت فيه الحرية كأساس للحداثة كان في المجال السياسي، وتحديدا في الفعل الديمقراطي، فالديمقراطية كنظرية أو كممارسة تعد نتاجا للمشروع السياسي الحداثي" إذ لا يمكن التفكير في العمل الديمقراطي خارج الأرضية الفلسفية والسياسية الحداثية المؤطرة لهذا العمل، وتفي مراجعة كيفيات تشكل التجربة الديمقراطية في تاريخ الفكر والممارسة السياسية في الغرب لنتأكد من المواكبة الحاصلة ضمن هذا التاريخ، بين المرجعية الفلسفية والحداثية وتجلياتها في الفضاء السياسي والاجتماعي والثقافي كفضاء ديمقراطي.

فالنظام السياسي الديمقراطي يرتبط بفكرة الحرية، ولا يمكن لهذا النظام أن يكتسب مشروعيته ما لم يتأسس على مبادئ الاقتراع العام، والسيادة الشعبية، والسلطة الشرعية.

واجمالا يمكن القول بان الفكر الحداثي في تحديد موضعه للمقومات إنما هي بداية النهاية أي نهاية عصر وبداية عصر آخر، أي نهاية المعارك التي خاضها الفكر الغربي ولمدة قرون ضد كل ما هو مناف للمعقولية والجدة، فالفكر الحداثي الغربي في بحثه عن المحركات التي من شانها ان تحرك وعيه الحديث ويتجاوز بها وعيه القديم، وتحقق له التلاؤم مع ذاته وواقعه.

6-تطوّر الحداثة طرق وأساليب جديدة في المعرفة، قوامها الانتقال من المعرفة التّأملية (التّقليدية، الذّاتية، الانطباعية...) إلى المعرفة التقنية (العلمية، الحديثة).

7-الحداثة حركة زمنية كاسحة، ودينامية شاملة، لأنّ لها القدرة على تفكيك البنيات الاجتماعية، والمنظومات التّقليدية، وترفع عنها القدسية...وهي شاملة بما تطاله من **"...مستويات الوجود الإنساني: المعرفة، فهم الإنسان، تصور الطّبيعة، معنى التّاريخ..."**

8-النّقد الذّاتي: يقول آلان تورين: **"...إنّنا لا نبالغ لو قلنا أنّ العلامة الأكيدة للحداثة هي رسالة العداء للحداثة التي تبثّها الحداثة، والتي تتّسم بالنّقد الذّاتي، والتّدمير الذّاتي، وهي طبقا لقانون بودلير "جلاّد نفسه""**[5]